التحولات الثقافية و ظاهرة التأخر عن الزواج عند الشباب

دراسة تحليلية لبعض القيم الثقافية

د. أحمد عياد جامعة تلمسان

مدخل:

لن نكون في حاجة إلى عناء كبير لكي نثبت أنه ثمة تباينا شديدا بين ما يتعاطاه جيل الأبناء من قيم ثقافية و ما كان يمتثل له جيل الآباء من قيم ، إذ البون شاسع و واضح بين الجيلين .

و تعلمنا أبجديات علم الاجتماع الثقافي أنه متى تباينت القيم الثقافية ، تباينت حتما السلوكات و الظواهر الثقافية ، و لعل هذا عينه ما يصنع الخصوصية الثقافية التي تعرف بها ثقافة أي مجتمع من المجتمعات .

كما أن ظاهرة تأخر سن الزواج عند الشباب الجزائري- كظاهرة ثقافية و اجتماعية – لن نشقى كثيرا و لن نتوه وراء الأرقام و الإحصائيات و الاستطلاع لإثباتها ، و هي كذلك لا يمكن تفسيرها أي الوقوف عن عللها و مبرراتها إلا وفق مقاربة سوسيو ثقافية ، أي وفق البحث عن عللها الاجتماعية و الثقافية ، و لكي يكون ما سبق له مدلول واضح يكفي أن نقارن مبدئيا بين فرد يجعل من الارتباط العائلي و الإنجاب الكثير يكسب صاحبه مهابة و مكانة اجتماعية ، و بين فرد ثاني يجعل من الاستقلالية و الانفرادية (لا يملك إلا معطفه، يحمله و يرتحل) يكسب صاحبه القوة و النشاط و الإقدام و المغامرة، و هي أفعال اجتماعية في اعتقاده تتماشى و النسق الاجتماعي الحالي ، و يعتقد أن الأبناء مجبنة و مبخلة .

بناء الإشكالية:

عملا بقاعدة اجتماعية تمتثل لها دوما الدراسات السوسيولوجية، وتنص على أنه من الضروري تفسير الاجتماعي بالاجتماعي، دون إخراجه عن حقله المعرفي، وعملا كذلك بقاعدة ميتودولوجية تنص هي الأخرى على ضرورة بناء الإشكالية العلمية انطلاقا من سؤال مبدئي يطرحه الباحث ويمتطيه لتشكيل صياغة دقيقة لإشكاليته متجاوزا بذلك العادي والمألوف عند العامة، – وهذا من الناحية الابستمولوجية يعتبر مستوى

وعتبة للتمييز بن الفعل العلمي والمعارف العامية- فإن الذي أشربت عليه عقول الكثير من العامة – المألوف- هو أن ظاهر التأخر عن الزواج عند الشباب ليس لها إلا مبررا ماديا، بيد أنه وبواسطة عمل إحصائي وتشخيصي للظاهرة يتبين أنه ليس ثمة اقتران بين العلة والمعلول، أي بين القدرة المادية وظاهرة التأخر عن الزواج، بذريعة أن الإحصاء يكشف أن الكثير من وحدات البحث تمتلك قدرة مادية لكنها عازفة عن الزواج، فحين أن المتغير المستقل الذي اقترن حضوره بحضور الظاهرة هو متغير النظرة للزواج، أي أن إقبال الشاب على الزواج أو عزوفه عنه مرتبط بتمثله للزواج، الأمر الذي يبيح لنا تجاوز التفسير المبدئي للظاهرة ومحاولة امتحان الترابط بين المتغير المستقل المتمثل في النظرة إلى الزواج، والمتغير التابع المتمثل في التأخر عن الزواج، متسائلين: **كيف يمكن تفسير ظاهرة التأخر عن الزواج عند الشباب بتمثله للزواج؟**

كما أن التمثلات التي يحملها الفرد اتجاه ما يوجد في وسطه الاجتماعي إنما هي منبثقة عن الثقافة التي ينتمي إليها والتي تكون نابعة عن قيم ثقافية هي المسؤولة عن جميع العناصر والسمات الثقافية التي يتعاطاها أعضاء الثقافة،وهي الضرورة التي تجعلنا نستنتج أنه ثمة علاقة تأثيرية بين ظاهرة التأخر عن الزواج والقيم الثقافية التي يحملها الشاب، فيسمح لنا بذلك التساؤل : **كيف يمكن اعتبار القيم الثقافية سببا لظاهرة تأخر الزواج عند الشباب ؟ و كيف يمكن تحليل ظاهرة تأخر الزواج عند الشباب وفق مقاربة سوسيو ثقافية ؟**

الإطار النظري:

قد يكون صحيحا عندما نعرف الثقافة على أنها مجموعة من الأفعال والمواقف والأقوال التي تصدر عن الفاعلين الاجتماعيين داخل وسط ثقافي واجتماعي معين، وتشمل جميع تأليفات الوسط الاجتماعي من مؤسساته و عملياته وتفاعلاته كالزواج والإنجاب والعمل والتسيير والتعلم وغيرها من العمليات الاجتماعية، لكن هذا قد يغدو غير كاف لفهم الثقافة فهما يمكن من الوقوف على النوى الحقيقية لها، إذ ما يصدر عن الفاعل الاجتماعي من أقوال وأفعال ومواقف، إنما هو في الأصل شكل من أشكال التعبير الثقافية، أما الثقافي المعبر عنه فهو القيم الثقافية، والتي هي في الأصل اللب الحقيقي للثقافة، بدليل أنه قد تتعدد وتختلف أشكال التعبير إزاء قيمة ثقافية واحدة، فالوحدة أصل والتعدد تفرع وانعكاس.

ومنه يغدو التحليل الموضوعي والدقيق لأي ثقافة، هو فقط ذلك الذي يصيبها من حيث قيمها وليس من حيث أشكال التعبير فيها،، وليس هذا فحسب، بل ينبغي أن نوظف هذا الطرح كذلك لفهم ما يلحق بالثقافة من تغير وتحول ثقافي، إذ قد يصبح عصيا وغير مجدي عندما نحاول فهم التحولات الثقافية من خلال ما يستجد من تحولات على مستوى أشكال التعبير الثقافية، أي من خلال ما يتعاطاه الأفراد من أفعال ومواقف،

والأجدى هو أن نفهم التحول الثقافي من خلال ما طرأ من تحولات على مستوى القيم الثقافية التي دوما تحضر كمبرر للسلوك والظاهرة الثقافية.

فالقيم بالإضافة إلى كونها المكون الأساس للثقافة، هي كذلك المسطرة والقالب الذي يكون على مستواه الفعل الثقافي وبها يقبل أو يرفض، إذ يقول (كلاكون): "القيمة تتضمن قانونا أو مقياسا له شيء من الثبات على مر الزمن، أو بعبارة أعم تتضمن دستورا ينظم نسق الأفعال والسلوك، والقيمة بهذا المعنى تضع الأفعال وطرق السلوك وأهداف الأعمال على مستوى المقبول وغير المقبول، أو المرغوب فيه والمرغوب عنه أو المستحسن والمستهجن" (1).

فالهدف في هذه الورقة البحثية هو محاولة فهم ظاهرة اجتماعية " التأخر عن الزواج عند الشباب" من خلال مبررات ثقافية، تختزل في قيم ثقافية راسبة عن الشاب وتصنع تمثلاته ومواقفه، ومنه تكون خلفية لجميع أفعاله وما يتعاطاه من ظواهر اجتماعية منها تأخره عن الزواج.

الإطار المنهجي:

1- الأدوات المنهجية:

الإجراءات المنهجية في البحث الاجتماعي هي أساس نجاحه أو إخفاقه، وأملا في النجاح عمدنا إلى انتقاء أدوات منهجية خادمة للغرض البحثي، كما عمدنا إلى تنويع هذه الأدوات وعدم الاكتفاء بأداة واحدة، فعن طريق الملاحظة المشاركة تم جمع المادة عند جيل الأبناء، وعن طريق أداة الاسترداد التاريخي وكذا الملاحظة تم رصد المادة عند جيل الآباء، وعن طريق تحليل المحتوى تمت عملية تحليل ومعالجة المادة.

2- المجال الجغرافي:

تمت الدراسة بمجال جغرافي ضيق لكن يمكن من تعميم نتائج الدراسة، إذ أجريت الدراسة بقرى وأرياف مدينة تلمسان، مثل قرى منطقة "صبرة" ومنطقة "سبدو" ومنطقة "بني بوسعيد" وتجدر الإشارة هنا إلى أنه تم انتقاء هذه المناطق دون غيرها لاعتبارات بحثية تعتبر هذه المناطق على مستوى مدينة تلمسان الأكثر تمثيلا للنمط الريفي الذي اعتقدنا أنه يمكن من الدراسة الموضوعية للظاهرة، أي يمكن من الوقوف على مستوى التحولات الثقافية، غير أن النمط الريفي بعد إجراء الدراسة تأكد أنه هو الآخر لا يحضر بالشكل الذي بنيت عليه الدراسة مبدئيا، وذلك في إطار التداخل بين النمط الريفي والنمط الحضاري الذي تشهده المنطقة بواسطة مبررات ووسائل أخر.

3- مادة الدراسة:

في هذه الورقة البحثية تم رصد وانتقاء مجموعة من القيم الثقافية التي لها صلة مباشرة بالزواج والأسرة والإنجاب، والتي كذلك يشترك فيها الجيلين معا لكن بمعية اختلاف كبير فيما يخص درجة الامتثال أو التنكر لها، وهذه القيم المنتقاة هي:

- الانفرادية /الاجتماع.
- الزواج: انجاز / فقدان.
- عائلة (عيالة)/ أسرة (أسر).
- الإنجاب: تضحية / جناية.
-الإنجاب: مرتبة اجتماعية/ مجبنة ومبخلة.

التحليل ونتائج الدراسة:

القيمة الأولى: بين الانفرادية والاجتماع:

التحول الثقافي والتغير الاجتماعي وكذا الفرق بين جيل الآباء وجيل الأبناء، يمكن اختزاله في هذه القيمة الثقافية الاجتماعية ودرجة الامتثال أو التنكر لها، فهو تحول أو تغير يمكن فهمه فقط على أنه انتقال من امتثال لقيمة الاجتماع والتعاون وإعلاء أهمية الجماعة، إلى تحبيذ الانفرادية والاستقلالية والانعزال والنزوع إلى الوصول إلى درجة الاكتفاء بالذات والاستغناء عن الآخر.

إذ الميل إلى الجماعة والاجتماع هو ما ميز الثقافة التقليدية وميز كذلك جيل الآباء، وذلك على مستوى جميع نواحي الحياة لديهم: الاقتصادية المادية التي كانت قائمة على التعاون والتآزر "التويزة" والجانب العلائقي التفاعلي مثل المصاهرة والبيوع والولائم وغيرها، أين كان يمنح للفرد مكانة اجتماعية على قدر ما يمتلك من رأسمالي اجتماعي يوظفه في جميع هذه التفاعلات الاجتماعية.

بينما على مستوى الثقافة بعد تحولها وكذا جيل الأبناء نلتمس نوعا من التنكر لهذه القيمة الثقافية، والأخذ بالنقيض المحبذ للانفرادية والاكتفاء بالذات، بل الاحترام والمرتبة الاجتماعية تمنح للفرد بقدر ما حقق من اكتفاء بذاته.

الأمر الذي يجلي بوضوح الفرق بين الجيلين، والذي على مستواه نفهم كيف أن الجيل الأول كان يأخذ بالزواج المبكر، والثاني يأخذ بالزواج المتأخر، فالزواج باعتباره عملية اجتماعية قائمة على الاجتماع وإقصاء الانفرادية والاستقلالية، وإعطاء مساحة للآخر في حياتنا كان يتم بشكل مبكر عند جيل الآباء الذي يأخذ بقيمة الجماعة، بنما هو كذلك تم بشكل متأخر غير مرغوب فيه عند جيل الأبناء الذي يحبذ الانفرادية والاستقلالية ويعتبر أن الفرد لما يتزوج يفقد حريته .

القيمة الثانية: الزواج: انجاز /فقدان:

من رحم القيمة الثقافية السابقة تتولد قيمة ثانية بموجبها تتحدد النظرة إلى الزواج عند الفاعل الاجتماعي، فالجيل الذي يمتثل لقيمة الجماعة "جيل الآباء" يجعل من الزواج انجازا: من جهة يعتبره مطلبا وغاية لما سبق من انجازات: شغله، رصده لثروة مادية، تحقيق مرتبة اجتماعية، بلوغ طبيعي واجتماعي... وغيرها، ومن جهة أخرى يعتبره قاعدة لانجازات أخرى تترتب عنه مثل الإنجاب، والتنشئة وتشكيل علاقات اجتماعية عن طريق المصاهرة، واكتساب مرتبة اجتماعية، فهو " الزواج " عند جيل الآباء هدف ووسيلة، بداية ونهاية، جزء كبير في رسالة الفرد، وبهذه المعاني لما يصل الفرد من جيل الآباء إلى هذا الانجاز، يكون قد حقق نجاحا اجتماعيا، بدليل أن الزواج في الكثير من الأعراف يعتبر امتحانا اجتماعيا، فيسعى بموجب ذلك الفرد إلى التسريع بهذا النجاح، فيكون الزواج المبكر.

بينما عند جيل الأبناء الآخذ بقيمة الانفرادية والاكتفاء بالذات، يكون الزواج فقدانا وليس انجازا، فهو يفقد قدراته ونشاطه بسبب التزاماته وارتباطاته الأسرية، يفقد كذلك حريته واستقلاليته، كما أنه بالزواج يعطي مساحة للآخر في حياته، وكأنه يملك جزءا من حياته للآخر، فيفقد بموجب ذلك هذا الجزء، ولما كان الزواج عند هذا الفرد فقدانا وخسرانا فلا نتسرع للفقدان والخسارة، وحتى وإن كانت هذه الخسارة لابد منها، فالأولى أن نرجئها ونؤخرها.

القيمة الثالثة: عائلة/ أسرة:

بموجب مفهوم الزواج: انجاز أم فقدان، تنبع تمثلات أخرى عند الفاعل الاجتماعي، فالفرد الذي يجعل من الزواج انجازا- جيل الآباء- لاشك أنه يتسلل إليه تمثل أخر وهو أنه من نتائج هذا الانجاز – الزواج – تكوين عائلة، يكون حاضرا من معانيها عنده أنه معيل وأن له عيال وهذا ما يجعله يعتقد أنه بالزواج لا يفقد

جزاءا من حياته ويملكه للآخر، وإنما هناك آخر يتحمل مسؤوليته، فهو معيل وهم عيال، كما يعتقد أن هذا الآخر –العيال– يعيلهم ويتحمل مسؤولية عنهم لأنهم سنده وركيزته، فهو يعطي ويأخذ دون أن يفقد أو يخسر(2).

بينما جيل الأبناء الجاعل من الزواج فقدانا وليس انجازا ، يعتقد أن الذي ينتج بعد فقدانه وخسارته – الزواج– هو تشكيل أسرة، من أهم معانيها عنده أنها مشتقة من الأسر والقيد، فالأولى له أن يطيل عمر الحرية لديه ولا يتعجل دخول الأسر.

القيمة الرابعة: الإنجاب: تضحية/ جناية:

من مفهوم العائلة ومفهوم الأسرة عند الجيلين تنبثق تمثلات أخرى عند الفاعل الاجتماعي، إذ الفرد الذي يحضر لديه مفهوم العائلة القائم على العيالة وتحمل المسؤولية يجعل من الإنجاب والتنشئة تضحية يقدمها الآباء اتجاه الأبناء، وهي تضحيات مستمر إلى غاية بلوغهم وتحولهم من كونهم عيالا إلى كونهم سندا، كما أن الفاعل الاجتماعي تحضر لديه التضحية في هذا المقام بمعية نوع من معاني اللذة والسعادة، وذلك لاعتبارها تضحية واجبة وتشكل جزءا هاما من حياة الفرد التي لا تكتمل إلا بها حياة الفرد: الاجتماعية والبيولوجية والنفسية، وتحقيقا لهذا الكمال يسعى الفرد من جيل الآباء إلى هذه التضحية ويسارع إليها فيتعجل الزواج.

بينما عند جيل الأبناء الجاعل من نتائج الزواج والفقدان الأسر، يجعل من الإنجاب جناية نرتكبها في حق الآخر، إذ يعتقد أنه بتحقيق نزواتنا النفسية والبيولوجية والاجتماعية ننجب، فالهدف ليس الإنجاب وإنما تحقيق هذه النزوات، وإن كانت هذه الجناية كذلك لابد منها فلا داعي لتعجلها.

القيمة الخامسة: الإنجاب : مرتبة اجتماعية/ مجبنة ومبخلة:

ومع ثنائية التضحية والجناية بالنسبة للإنجاب، تأتي ثنائية أخرى، وهي إما اعتبار الإنجاب مرتبة اجتماعية، أو اعتباره "مجبنة ومبخلة" ، أي اعتباره مكسبا أو فقدانا وتكلفة، وهنا نلتمس كذلك فرقا بين جيل الآباء وجيل الأبناء، إذ الجيل الأول يجعل من الإنجاب مكسبا يكسب صاحبه المرتبة والمكانة الاجتماعية، حيث كان الإنجاب الكثير لديهم دليل على الامتلاء بالرجولة ومن ثمة استحقاق مكانة اجتماعية كبيرة داخل المجتمع، ولعل هذا ما يؤخذ في الكثير من الأحيان كمبرر لتعدد الزوجات عند جيل الآباء، ومنه لما يكون مطلب جيل الآباء هو إحراز المكانة الاجتماعية التي لن تتأتى إلا عن طريق الإنجاب، وهذا الأخير لن يتأتى إلى عن طريق الزواج، نجدهم يتعجلونه.

بينما جيل الأبناء يعتبر الإنجاب مكلفا من الناحية المادية والنفسية، فهو يجعل صاحبه يسخر الكثير من طاقاته وقدراته ومؤهلاته لما أنجب، الأمر الذي يجعل حياته بعد الإنجاب والزواج ليس بالشكل الذي كانت عليه قبلهما، فمن الكرم والسخاء يتحول إلى البخل والاقتصاد، ومن الشجاعة والإقدام يتحول إلى الجبن والتريث، فالأولاد مجبنة ومبخلة.

خاتمة:

ما تنزع إليه الدراسات السوسيولوجية الحالية هو تبني المقاربة السوسيوثقافية لفهم الظواهر الاجتماعية، لأنها مقاربة تمكننا من تحليل السوسيولوجي على ضوء الثقافي، مقاربة تمكننا من البحث عن الخلفيات والترسبات الثقافية المتحكمة في الظاهرة الاجتماعية.

وظاهرة التأخر عن الزواج عند الشباب، ظاهرة اجتماعية يمكن هي الأخرى أن نغوص في عمقها محاولين تحديد الثقافي المتحكم فيها، ولعل هذا ما هدفنا إليه في ورقتنا البحثية، أين جاز لنا البحث في القيم الثقافية المتحكمة في هذه الظاهرة، وذلك بمحاولة الوقوف على القيم الثقافية المقترنة بالزواج المبكر، والأخرى المقترنة بالزواج المتأخر، لما كان شكل الزواج المبكر مأخوذا به عند جيل الآباء، وشكل الزواج المتأخر مأخوذا به عند جيل الأبناء، جاز لنا أن نقارن بين القيم الثقافية الموجودة عند كلا الجيلين، وعن طريق تحليل محتوى هذه القيم الثقافية حاولنا أن نربط بين الثقافي وظاهرة التأخر عن الزواج عند الشباب.

غير أن تحليلنا اقتصر على مجموعة محددة من القيم الثقافية، دون أن ندعي غلق القائمة، إذ نعتقد أنه ثمة الكثير من القيم الثقافية التي يمكن تحليلها وتوظيفها في فهم الظاهرة، كما أن هذا المدخل الموظف في دراسة هذه الظاهرة قد يكون مدخلا ييسر فهم جزء منها وليس كلها، بل أن هذا المدخل لن يكون مجديا إلا إذا وضع بالجوار من مداخل منهجية أخرى لفهم الظاهرة وتفسيرها، وبالتالي يبقى السؤال : كيف نفهم هذه الظاهرة؟ دوما مطروحا.

المراجع:

1- فادية ذياب. القيم والعادات الاجتماعية. دار النهضة العربية، بيروت، 1980 . ص.52

2- حليم بركات. المجتمع العربي المعاصر. ط8؛ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004 . ص.175

3- فادية عمر الجولاني. الأسرة العربية. مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية،1995 .

4- مصطفى بوتفنوشت. العائلة الجزائرية. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984 .

الدكتور: عياد أحمد

جامعة تلمسان

أفريل 2010